الادب والآلة

تأثير الادب في عصر الطباعة

وتأثير الآلات في أساليب الادب

بين الادب والآلة صلة قديمة ترتدّ الى اختراع الطباعة في القرن الخامس عشر . كان الادب قبل ذلك التاريخ مقتصراً على جماعات يسيرة من الناس . فكلام الخطيب كان لا يسمع الاّ في دائرة ضيقة حول خشبة المنبر . وكان في مستطاع الشاعر او المؤرخ او العالم أن يؤلف كتباً ولكن نفقة نسخها كانت كبيرة فحالت دون ذيوعها . حتى المؤلف المسرحيّ ، وهو اديب يجمع بين القرّاء والسمّاع ، كان لا يفوز الاّ بجمهور يسير من الفريقين اذا قيس بمسرحيّ اليوم

الاّ انا في القرن العشرين عدنا لا نحسب للطباعة آخر المخترعات التي لها صلة وثيقة بالادب من حيث توسيعها لنطاقه . لان هناك وسائل اخرى استحدثها العلم . فاذا كتب برنارد شو كتاباً الى محرّر صحيفة كبيرة في لندن ، ينطوي على رأي ألمعي أو نقد لاذع ، نقلت كلماته كلمة كلمة بالبرق الى نيويورك فتنشر في سلسلة متصلة الحلقات من صحفها يطالعها الوف الالوف . فالبرق يوسع نطاق الادب . والاذاعة اللاسلكية تكمل هذا العمل . ولو انهُ كان في الامكان اقناع برنارد شو مثلاً أن يقف خطيباً في لندن امام مذياع لامكن ان يسمعهُ جمهور من الاميركيين والانكليز لا يقلّ عددهُ عن مائة مليون

كان على سقراط ان يكتفي بطائفة يسيرة تحاورهُ ويحاورهم في اجورا ، وعلى قيصر ان يقنع بقلّة من شيوخ روما في مجلس شيوخها . ولكن المحاورات اللاسلكية تدور الآن بين ادباء يقيمون في مدن متباعدة ، وخطباء الامم من أمثال روزفلت وهتلر وموسوليني وبولدوين يخطبون فيصغي اليهم العالم قاطبة . ولو عاش سقراط ، أو قيصر الف سنة ، لما سمعهما في خلالها عدد من الناس ، يقارب من يسمع شو أو هتلر أو روزفلت في ساعة واحدة

نسلّم بأن عدد الجمهور المستمع للخطيب لا يعلي من شأن الجمهور . وان الجمهور المستمع مثقفاً كان أو غير مثقف ، كبيراً او صغيراً ، لا يجعل من كلام الأديب او الخطيب فنّاً . ولكن

الأدب في عصر الآلة لا يمكن ان يبحث على أوفى وجه الا من حيث ارتباطه بالآلات التي خلقت للأدب عملاً جديداً وأشكالاً مستحدثة. قد يكون من المستطاع اقامة الحجة، على ان هذه الوظائف، وهذه الاشكال دخيلة على الادب وانها لن تيسّر شيئاً من قواعد فن الابداع. فالشعر لا يزال شعراً، والدرامة لا تزال درامة، والقصص لا يزال قصصاً، والموضوعات الرئيسية التي يعالجها الادب لا تزال الموضوعات التي كان يعالجها من قرون وقرون. ولكن شأن الادب في الحضارة قد تغيّر منذ اخترعت المطبعة، ولا بدّ ان يمضي في تغيّره متأثراً بكل أداة جديدة يبدعها العلم ويلقيها على باب الكاتب، فتكون صلة جديدة بينه وبين القارىء.

وقد يقال ان الاذاعة اللاسلكية التي تنقل قول المذيع الى آذان السامع لا صلة لها بالادب، لان ما قيل لم يدوّن، وانما تبدّدت نبراته مع امواج الهواء والاثير. ولكن ليعد القارىء بالذاكرة الى العصور القديمة، عند ما كان الادب، ولا سيما الشعر ينقل بالرواية من جيل الى جيل ومن عصر الى عصر وليتصوّر مثلاً شاعراً كفرنسوى ڤيون المنشد الباريسي. فقد كان ڤيون يقرأ اناشيده لصحبه في خمّارة من الحمّارات، وكان يسمح لهم بان يدوّنوها اذا شاؤا. والمرجّح ان شيئاً منها لم يطبع الا بعد نفيه، او بعد وفاته. اي ان الجمهور الكبير الذي قرأ ڤيون قرأه بعد ما غدا من المتعذر عليه ان يعرفه. ولو ان شاعراً كڤيون وقف امام المذيع في هذا العصر، وقرأ اشعاره فتذيعها الامواج السحرية على الوف الالوف، ثم تدوّن في اقراص الحاكي فيستعيدها كلّ من يأنس من نفسه رغبة في سماع صوته، لحكمنا بان للاذاعة واقراص الحاكي مكانة وأية مكانة، في نشر قصيدة من القصائد تطرب لها النفوس او تحرّك. قد يعزف الجمهور بعد شهر عن هذه القصيدة ليقبل على اخرى تليها من شاعر آخر، وقد تطوى هذه القصيدة او تلك بعد سنة في زوايا النسيان، ولكن ذلك لا يهمّ. لانّ الآلة تكون، قد اطالت من عمرها ووسعت من نطاق تأثيرها. وهو ما لم يكن ڤيون ولا غير ڤيون من شعراء العصور القديمة يطمع فيه. وكذلك يكون الادب قد أثر على وجه ما في عصر الآلة تأثيراً كان مستحيلاً على الادب قبل عصر الآلة.

بين قراءة ڤيون لاشعاره في خمّارة باريس، وقراءة ڤيون الموهوم لاشعاره امام المذيع تطور عظيم الشأن، ترتدّ اوسع خطواته الى المطبعة. والمطبعة تعني، تمكين الاديب من تعديد النسخ التي تنشر من كتابه. ولكن هذا التعديد افضى الى اشياء اخرى. ذلك ان ندرة الكتب لفداحة ثمنها كما كانت قبل عهد المطبعة، حتمت ان تكون في متناول قلّة من الناس اي ان قليلاً من الناس كان يأنس من نفسه باعثاً على العناية بتعلم القراءة ليقرأها. فلما كثرت النسخ، بطبعها بدلاً من نسخها، حرّكت في الجماهير العناية بها، كما تخلق بضاعة جديدة رغبة في شرائها

فقد تضاعفت الكتب كثرة في القرن ... بعد ... فن الطبع ، كثرت الكتب وما كاد القرن السابع عشر ينتهي حتى كانت كثرة الكتب من الادب القديمة قد طبعت . وفي مستهل القرن الثامن عشر امكن من القادر ان يجد اثراً حديثاً بالغاً في بعض الاحيان عمق الشعر مؤلفه فما كاد القرن التاسع عشر ، كانت الصحف قد انتشرت وتمت الطبعة ، وصارت تنافس الادب . وفي مطلع القرن العشرين كانت ... قد اصبحت من المنشآت الكبيرة ، واتسع نطاق الادب وتعددت فروعه ، حتى اصبح ما كان يعرف بالادب في القرون السابقة جزيرة صغيرة في محيط فسيح من الكلمات المدونة والمطبوعة . وقد اخذ الناس في الثلث المنقضي من القرن العشرين ، الى تعدي الكلمات المطبوعة في الادب الى غيرها من الوسائل التي تؤثر في حواس غير حاسة النظر — فثمة الخطابة بواسطة المذياع ، وثمة الصور المتحركة في الدرامة ، وثمة الصفحات المصورة في الصحافة . وليس بالنادر ان تجد من يتنبأ بأن الادب قد اوشك ان ينهار ، وان الناس بفضل الوسائل الميكانيكية المستعملة في عرض آثار الفكر والفن ووقائع الحياة عليهم ، سيرجعون القهقرى الى عصر من الامية ، مضت عليهم قرون وهم يكافحون في سبيل الخروج من ظلماته

وليس يهمنا هنا ما يقوله هؤلاء . وانما يهمنا ان نبين تأثير الآلة في الادب . ففي المقام الاول كان من تأثير الآلة في الادب تقسيم العمل وتوفر كل فريق من الادباء بوجه عام ، على فرع منه او جزء من فرع ، حتى اصبحنا ولنا في دولة الادب كما لنا في دولة الاجتماع طبقات وطبقات . فثمة من يقول بأن الصحافة غير الادب ، بل ان بين الاثنين نوعاً من المنافسة والصراع . والخطابة عادت لا تعد من فنون الادب وكذلك العلم وجانب كبير من المؤلفات التاريخية . وقد انزوت الدرامة في جانب من الميدان الذي كانت تحتله ، لتخلي المكان للصور المتحركة

فالادب في عالم ، يكاد يكون فيه كل انسان قارئاً ، أصبح لا يطلق الا على نطاق محدود مما يكتب وفقاً لقواعد معينة لقراءة طبقة خاصة من الناس بأساليب معينة . وليس هذا التحديد من قبيل التعنت . ولكنه ينبع من حقيقة اساسية ، وهي أن جميع الوسائل التي تشجع الكتاب على الكتابة ، وتعينهم على ذيوع أعمالهم ، لا تستطيع ان تزيد عدد الموهوبين المتازين منهم . فظهور النابغين من الكتاب لم يزد بابتداع هذه الوسائل . والادب ، بهذا المعنى المحصور لا يزال نادراً . ولكن الطلب الكثير على كتب الادب افضى ولا ريب الى كثرة المتوسط منها او ما هو دون المتوسط

ولو ان المطابع حصرت عملها في طبع الآيات الادبية فقط ، لاجتنب جانب من هذه الشرور . ولكن دون ذلك من هذا القبيل عقبات كبيرة . فالناشرون لا يدركون دائماً قيمة الآثار الادبية التي تعرض عليهم للنشر . وعلاوة على ذلك لجمهور القراء مطالب تغري بنشر كتب تؤدي اغراضاً خاصة لا يؤديها الادب بأعلى معانيه . فكتب الملخصات لحقائق العلوم والمعارف

العامة وكتب التسلية وما كان منها متصلاً بتعميم الآراء اليومية تنال من الناس اقبالاً لا تقل للتأثير بتجاهه . وليست هذه النزعة خاصة بعصر الآلة ، ولكن التأثير في عصر الآلة ، وجدت الوسائل الوافية لتنميتها وتأكيدها . ان فلاحاً ريفياً في العصور القديمة كان في الغالب يسأل متعجباً عن مرض اصاب قصديه ويصغي الى قصة تروى حول نار القبيلة ويستطلع مسافراً ما حدث في قرية مجاورة منها ولكن الفلاح الاميركي او الانكليزي يقرأ الآن نشرات الحكومة الخاصة بوقاية القطعان من مرض وبائي ، ويطالع رواية ويقرأ جريدة ، فيشبع بعض الميول التي كان يشبعها الفلاح البابلي على طريقته البدائية — وليس من فرق بين الاثنين الا المطبعة

الا أن البحث في الادب يغري الباحثين عادة ، بصرف النظر عن كل ما كان دون الادب العظيم ، وحصره في الادب الذي تكتمل فيه قواعد الفن ويرجى له الخلود . ولكن بحثاً من هذا القبيل قلما يتسع اتساعاً وافياً لشمل جميع عناصر البحث . لان كلمة « لتراتور » وهي التي نترجمها عادة بلفظ الادب هي كل ما يكتب ليقرأ اي ان الادب باوسع معانيه وسيلة لتمكين الفكر الانساني من بلوغ مدى لا يبلغه اذا اكتفى الانسان بالنطق . ثم كيف السبيل الى التفريق الحاسم بين مؤلفات ادبية ، هي من الآيات الخالدة على الدهر ، والمؤلفات التي تروج مدة طويلة او قصيرة ثم يطويها النسيان . فرواية دون كيشوت كتبت لتكون صورة « كاريكاتورية » من روايات كانت رائجة في ذلك العصر . وقصة روبنصن كروزو كانت احد الكتب الكثيرة التي الفت في ذلك العهد في وصف الرحالين الضالين والمسافرين الذين تحطمت سفنهم على شواطئ جزائر نائية غير آهلة بالناس . وليس بين تلك الكتب الآن — اذا استثنينا روبنصن كروزو — ما يحفل به احد الا اصحاب غرض خاص في البحث . ولا يستطيع أحد من النقاد أن يقول ان سرفانتس مؤلف دون كيشوت وديفو مؤلف روبنصن كروزو ، اقبلا على كتابة مؤلفيهما وهما يقصدان خاصة ان يسما كتابيهما بسمة الفن والخلود . ولكنهما كانا كاتبين عبقريين ، نظهر كتاباهما على الكتب التي قلداها او التي جريا على غرارها . والراجح أنهما لم يدركا أنهما يقومان بعمل يعجز معاصروهما عن القيام به . فكان الحكم للزمن والزمن هو الغربال الاخير ، يغربل الكتب التي تؤلف ولا يستبقي الا النادر منها . الا ان الادب على متصل ولا يمكن ان يفهم الا بالمقابلة بين الكتب التي يكتب لها الخلود والكتب الأخرى التي لا يدوم نجاحها الا بين ليلة وضحاها من ليالي الزمن وضحاه

وليس أدلّ على تأثير المطبعة في المطبوعات من دراسة تأثيرها في القصة لأنّ القصة في عصر الآلة ، هي أبرز الأساليب الكتابية وأوسعها انتشاراً وأكثرها رواجاً . فلولا المطبعة لما أدركت القصة على أبعد تقدير ما أدركته الآن من الذيوع . ومع ان القصة كأسلوب من أساليب الأدب اخترعت قبل عهد المطبعة ، الا أنها لو اعتمدت على جهد النساخ في اخراج نسخ متعددة

من قصة [illegible] القرن الثامن عشر [illegible] الذي أدركه من طريق [illegible] حتى بعد [illegible] [illegible] ثلاثة قرون [illegible] القصة [illegible] دون الاساليب [illegible] [illegible] الادب [illegible] [illegible] جميع الصفات التي تمكن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] طبقة كبيرة من القراء ترغب في [illegible] [illegible] هذه الطبقة [illegible] . وقد جاء عهد كان للقصة خصوم كثيرون [illegible] [illegible] مفيدة ؛ وكان الرأي عندهم أن القراءة يجب أن تنحصر في ما يفيد . ولكنهم تحرروا من هذا الحصر ، لان الطبعة التي ربّت طبقة من الناس تقرأ للفائدة عجزت عن منعهم من القراءة للتسلية . وكذلك زاد الطلب على القصة فزاد المعروض منها . وكذلك تسنى للقصة في القرن التاسع عشر ان تبز جميع الاساليب الادبية في تقدمها وتطورها . بل انها في تقدمها ، اخذت على عاتقها ان تقوم في بعض أشكالها بعمل القصيدة القصصية ، لان النثر اسهل في القراءة من الشعر ، وسلبت الدرامة بعض مقامها لانه اسهل عليك ان تبحث في طلب كتاب من ناشر يبعد عنك الف ميل من ان تذهب عشرين ميلاً فقط لمشاهدة درامة تمثل . وكذلك اصبحت القصة مدرسة للسلوك ، ومنبراً للمناقشة ، ومجلى للتاريخ ، ومسرحاً مصغراً للحياة . بما احكمت الصلة بين جمهور الناس والادب ، بل فاقت جميع اساليب الادب الاخرى في ذلك — انه في ميدان الادب نصرٌ للآلة

اما الرواية المسرحية ، وهي اسلوب ادبي اقدم من القصة ، فقد خضعت كذلك لتأثير الآلة . فالمسرحيات الاغريقية واللاتينية ، وكذلك مسرحيات شكسبير وموليير ، كانت تخرج بالايدي ، علاوة على نسخها نسخاً . ولم يكتشف الانسان الوسائل الجديدة لاضاءة المسارح وتغيير المشاهد ورفع الستار وخفضه الا في القرن التاسع عشر ، فتحول هذا الجانب من المسرح الى عمل ميكانيكي محض او يكاد يكون كذلك . وقد اثر كل ذلك في نواحٍ ثانوية من اسلوب المسرحيات في الكتابة والاخراج ، ولكن المسرحيات لا تزال بوجه عام مسرحيات والممثلون ممثلين ، وبرنارد شو اقرب من هذا القبيل الى يوربيديس من تولستوي الى هوميروس . الا ان الجديد حقيقة في الادب المسرحي في عصر الآلة ، هو الصور المتحركة . فمقام الصورة الصوتية في الادب المسرحي كمقام المطبعة في ادب القصة وغيرها من المؤلفات . انها تمكن الناس من اخراج نسخ متعددة من مسرحية واحدة ممثلة . فالمسرحية عندما تمثل على مسرح لا يمكن ان تتعدى عدد النظارة الذين يشاهدونها في وقت ما . ولكن المسرحية التي تمثل وتصوّر في خلال تمثيلها ، على شريط منساب ، يمكن ان تصنع منه نسخاً متعددة فلا تمضي أسابيع على توزيع الشريط حتى يعرض في جميع انحاء العالم . واللغة لا تحول دون هذا الانتشار . قبل الصور المتحركة الناطقة كان يعتمد على ان التمثيل الصامت لغة عالمية . وبعد نشوء الصور المتحركة الناطقة اخترعت

أساليب التي كانت تستعين [illegible] قصص الأدب [illegible] التي يعرض فيها الشريط . [illegible] أساليب الفن المسرحي [illegible] وهي أساليب لا تمكن [illegible] من [illegible] كيف تستعين [illegible] من الفنون [illegible] في آن واحد . [illegible] فتمكن المخرج من أن يختار أية بقعة على سطح الأرض لتكون مشهداً لرواية [illegible] ذلك على قمة جبل أو في سفينة مخترقة عباب اليم أو داخل مصنع حديث أو على متن طيارة محلقة في الجو أو في شارع مدينة كبيرة أو في صحراء قاحلة . ويقصد هذه المشاهد عما يرسم باليد ثم يصور بالرسم والضوء ، ولكنها صور حقيقية حية في الغالب ، أو لا تكاد تفرق عنها في شيء . ثم ان مجال الفن أوسع مما يتسع له مسرح كبير في بهو متسع . ولما كانت صور المشاهد والممثلين تصور في معزل عن الناس ، فانها تسنح أمام المخرجين للنقد والاعادة والاجادة . وكذلك لا يعرض على الناس الا ما بلغ مرتبة الاتقان التي يرتضيها المخرج ، وهي واحدة في جميع النسخ ، فلا تتأثر كما قد يتأثر الممثلون على المسرح ، بأحوال الصحة والمرض ، والفرح والترح ، وقلة النظارة وكثرتهم

الا أن الصور المتحركة ترمي الى الفوز باستحسان أكبر عدد من الناس ، ولذلك يفضل القائمون بها ان تكون تحت مستوى الخاصة فكراً وفناً على ان تكون فوق مستوى الكثرة الساحقة . فقصصها في الغالب عادية لا ابداع فيها ، وتمثيلها من طرز محددة ومعروفة ، وموضوعاتها مبتذلة . ذلك ان الآلات تحيد التصور ولا تحيد التفكير

وقد لا تكون الكتابة للصحافة من الاساليب الادبية الصميمة المعترف بها ، ولكنها على كل حال من الادب بأوسع معانيه . وهذه الكتابة قد تأثرت الى أبعد مدى بالآلات . فالرغبة في الاطلاع على الاخبار قديمة جداً ، ولكن مدى هذه الرغبة لم يعرف على حقيقته ، حتى ظهرت الصحف الحديثة ، وهي وليدة الآلات — من الآلات التي تصنع الورق ، في لفات كبيرة ، الى المطابع الدوارة ، الى منضدات الحروف ، الى وسائل العلم الحديث في نقل الانباء والصور على اختلافها . قد يختلف الباحثون في هل تصنع الانباء الجريدة أو هل تصنع الجريدة الانباء . ولكن من المحتم ، انه على كثرة ما ينشر في الصحف من الانباء ، لا تحدث في العالم حوادث على جانب وافٍ من خطورة الشأن تكفي لملء جريدة من جرائد اميركا او اوربا الكبيرة . ولكن الآلات التي اخترعت واتقنت لجمع الاخبار وتنضيد حروفها وطبعها ، لا يمكن ان تبقى ساكنة ، واذن فلا بد من نشر كل ما يتيسر جمعه من الانباء بلغت ما بلغت من التفاهة . بل الواقع ان الصحف التي يقرؤها مئات الالوف بل الوف الالوف مضطرة الى نشر جميع الانباء الخطيرة والتافهة ، حتى يتيسر لكل قارىء من قرائها ان يجد فيها ما يهمه أو يلذ له

وهذا ينتشر حجم الصحف الكبيرة في سبيل [illegible] كان المجهود من كل عدد من الصحيفة لن يكفي قارئه بينا وبعد [illegible] فالآلة تكتب [illegible] يمكن اخباره المستعجل من الاطلاع على [illegible] فالآلة تكتب [illegible] وتصل الى [illegible] بسرعة. فلولا الآلات لما [illegible] الصحف الحديثة [illegible] الآلات [illegible] التي تحدد صفات هذه الصحف. ومع ذلك يسعنا ان نشوق ان نكرنا أثر من [illegible] اساليبنا القديمة : الاسم صورة وصحة كالصورة التي ترسمها الصحف الاحدية من جريدة نيويورك تيمس مثلاً لحياة الامة الاميركية

قد يعترض معترض على مباني هذا البحث ، بأننا عنينا بالأساليب الادبية في العهد الاخير ، من حيث تأثرها بالآلة ولكننا لم نقل شيئاً من تأثير الآلة في الادب ، في القرون التي انقضت بين اختراع المطبعة واواسط القرن التاسع عشر . والرد على هذا الاعتراض، أن الطباعة لم تبلغ مقاماً عالياً في الحضارة الغربية، حتى ظهر آثرها في تكوين طبقة كبيرة من القراء، اي انه كان لا بد ان تصبح المطالعة عادة لاغنى عنها كالبس الاحذية قبل ان يظهر هذا الاثر . ولذلك ظلت المطبعة من الكمانيات الى ان تم ذلك . وكانت النتيجة الاجتماعية ، لتكوين هذه الطبقة ، ان الاشاعات أضحت تسرع حول الارض اسراع البرق، والانباء التي كانت تقضي شهوراً حتى تنتقل من بلد الى بلد بالرواية او بالبريد ، غدت تذاع على ملايين القراء في جميع الاقطار كل يوم . ونشأ عن ذلك توسيع نطاق التأثير الناشيء عن انتقال الافكار وتحريك الشعور . ففي الامكان اليوم ان تثير قارة بأسرها ، كما كان الخطيب يثير قرية صغيرة في العصور القديمة . بل في الامكان ان تصنع بطلاً بين ليلة وضحاها ، وان تضخم حملة واسعة النطاق في اسبوع ، وحرباً صليبية في شهر ! ان الحضارة الغربية — بعد اختراع الراديو والصور المتحركة والصحافة الحديثة — أشبه ما يكون بمشاهد جالس في مسرح وفي حضنه كتاب تنقلب صفحاته صفحة صفحة من تلقاء نفسها

يكاد يستولي على الباحث ، بعد كل هذا ، شعور غريب ، وهو ان سمة الادب في عصر الآلة هي التبديد . تبديد في الجهد وتبديد في الوقت وتبديد في المال . الوف من الكتب تكتب وتطبع ثم تطوى وتنسى . ومئات الخزائن على رفوفها الوف من مجلدات لم تفتح . والوف الالوف من الصفحات تخرجها مطابع الصحف والمجلات ثم تذروها الرياح . ان الآلة التي مكنت الصلة بين الجمهور والكتاب وعجلت ظهور المؤلفات الادبية وعددت نسخها ، حشدت كذلك منها ما لا قبل لعقل بها فيقرأ ما يقرؤه منها ثم ينساها . صورة قاتمة ! ولكن الانسان تعلم ان يسير في شوارع تعج بالمارة والمركبات مجتنباً جميع الاخطار، أفليس في وسعه اذا اصاب نصيباً من الثقافة الصحيحة، ان يجتنب كذلك الانطمار تحت سيل الادب المتدفق ، فلا يقرأ منه الا الآيات المختارة ؟ وبعد فليس ثمة ريب في ان بين آلاف الكتب التي تخرجها المطابع كل سنة بضع آيات . . . !

احد الانبياء